مفهوم نقد النقد عند علي حرب

تعقيب وتقويم

د. العرابي لخضر .
جامعة تلمسان (الجزائر)

لم يحظ خطاب نقد النقد باهتمام كبير من قبل الباحثين ، ولا من قبل البحث الجامعي ، مثلما حظيت به الدراسات الأدبية الأخرى . وربما لا تقتصر هذه الظاهرة على البحث الجامعي العربي فقط ، وإنما هي ظاهرة أيضا في الدراسات الأدبية الحديثة ، بل إن قراءة كتاب على كتاب لاتثير اهتمام القراء كثيرا سواء في أدبنا أو في بعض الآداب الأخرى ، كما يرى تودوروف في كتابه : نقد النقد .

وإذا كان الاهتمام بنقد النقد حديثا ، فإن تطور إمكانية البحث فيه راجع إلى تطور البحث في العلوم الإنسانية والدراسات اللسانية ، والدراسات الأدبية الحديثة ، مثل السيميائيات وطرق تحليل الخطاب . وإذا كان النقد يتخذ من العمل الأدبي موضوعا له ، فإن هذا النقد نفسه يصبح موضوعا في نقد النقد . وبعبارة أخرى ، فإن النقد الذي يعتبر لغة واصفة للغة الأدبية الأولى ــ لغة العمل الأدبي ــ فإن نقد النقد لغة واصفة للغة واصفة . غير أن هذه اللغة تمتلك قدرة على ضبط موضوعها من خلال لغة تسعفها على الوقوف على كيفية اشتغال اللغة النقدية الأولى . وعليه ، فإن خطاب نقد النقد ينتج لغته حينما يقوى على تأطير موضوعه بأدواته النظرية والمنهجية والمصطلحية التي تميزه عن الخطابات الأخرى [1] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عرف الأدب العربي الحديث لونا من نقد النقد الذي اهتم بالخطابات العربية النقدية القديمة ، وعمل جاهدا على التحسّس بها ، من خلال رصد مختلف الممارسات النقدية وتتبعها في سيرورتها التاريخية ؛ مثل : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، لإحسان عباس ، والنقد المنهجي عند العرب ، لمحمد مندور ، وبحث محمد برادة ، حول : محمد مندور وتنظير النقد الأدبي ، وبحث محمد مصايف ، حول : جماعة الديوان ، وبحث توفيق الزيدي ، حول : مفهوم الأدبية في التراث النقدي العربي ، وإلى غير ذلك من الأبحاث التي لا يتسع المقام لذكرها هنا .

غير أن هذه الأبحاث المنجزة في مجال نقد النقد ، كانت تسعى إلى أن تخرج بخلاصات هامة في تاريخ النقد العربي ، لها علاقة بالتاريخ الخطي للنقد أكثر من اهتمامها بنقد النقد ذاته ، ومن ثم لا تسعفنا كثيرا على تشييد خطاب نقد النقد ، الذي يسعى لاكتساب وضعيته الاعتبارية داخل المنظومة الأدبية الحديثة بأجناسها وأشكالها التعبيرية المختلفة الحديثة [2]

إن نقد النقد المعاصر ، كما يرى أحمد بوحسن ، يسعى إلى " تطوير ممارسته عن طريق شحذ أدواته ومساءلة إنجازاته والوعي بموضعه ، في إطار التعالق الحاصل بين الدراسات الإنسانية واللسانية والأدبية المختلفة . وتتحدد باستمرار الوضعية الاعتبارية لنقد النقد حينما نجده يصوغ لغته الواصفة الممتلكة للأسس النظرية والمنهجية والاصطلاحية ، يقوى بها على نسج أنساقه ووضع سننه الخاصة ؛ ويركّز بذلك تقليدا خطابيا يستطيع أن يفتح آفاقا جديدة في الدراسة النقدية العربية المعاصرة " [3] .

وإذا كان كل خطاب يقوم على اللغة التي تدفعه ليكتسب هذه الصفة أو تلك ، فإن خطاب نقد النقد ، كما يقول أحمد بوحسن ، " يتميز بلغته الاصطلاحية التي يعتمد عليها ، أو ما يعرف بالمصطلح . ولعل ما يميز العلوم بعضها عن بعض هو اختلاف مصطلحاتها ودقّتها "[4] .

والحق أن مفهوم " قراءة القراءة " أو " نقد النقد " ليس مفهوما جديدا إلا " بإطلاقه الاصطلاحي ؛ وإلا فإن قدماء النقاد العرب ، وشراح النصوص الشعرية كانوا مارسوا ، هم أيضا ، ما يعرف لدينا ، نحن اليوم ، تحت مصطلح " قراءة القراءة " : إما جزئيا (كأن يعترض محلل أو شارح [قاريء] على من سبقه ليعارضه ويخالفه ، أو ليضيف إلى قراءته ، أو " يصحح " مظهرا من مظاهرها) ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإما شموليا حيث نلفي كثيرا من قدماء الشراح وقرائهم يعمدون إلى عمل من القراءة سابق بجذاميره فيعيدون قراءته في ضوء من المعرفة الجديدة ، أو على نحو من الذوق مخالف ، كما فعل أبو محمد الأعرابي الذي قرأ ما كان قرأه أبو عبد الله الحسين علي النمري البصري من أبيات حماسة أبي تمام . وهذا شأن لا يكاد الحصر يأتي عليه " [5]

ويرى علي حرب أن العرب قد عرفوا " قراءة القراءة " تحت أشكال مختلفة ، كما يبدو من المصطلحات التي تجسّد بعض ذلك النشاط النقدي المتنوع ، مثل " تاريخ التاريخ " كما يظهر من بعض كتابات ابن خلدون التي عمدت إلى نقد التاريخ وتحليله في ضوء كتابات تاريخية سابقة . و " تفسير التفسير " إذ انصرفت العناية إلى نقد الكتابات التفسيرية السابقة مثل الحواشي التي كتبت على هامش كثير من كتب التفسير ، أو مثل ما نجده في تفسير الرازي الذي يتعرض كثيرا لأقوال المفسرين السابقين عليه بالنقد والتجريح ، وطرح الأسئلة الحيرى أو التعجيزية التي لا يملك لها المرء جوابا . ومن هذا الوادي ، أيضا ، ما فعله الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " .

وهكذا يلاحظ علي حرب[6] أن " نقد النقد " ابتدأ في مسيرة النقد العربي بسلوك منعزل جاء إما ردّا لقراءة سابقة ، وإما نقضا لتحليل لم يلق القبول ، وهذا يظهر من تلك التعليقات التي كانت تكتب حول المقروء ، كما فعل ابن سيده الذي تصدّى في قراءته ل " مشكل أبيات المتنبي " لقراءة من سبقوه .

فمفهوم " نقد النقد " عند علي حرب يعني وجود قراءة تنسج من حول قراءة أخرى تسبقها : تصفها ، وتحللها ، وتدرسها ، وتبلورها ، وتستضيئها ، وتبث فيها روحا جديدا لتغتدي منتجة مثمرة . إن مفهوم " نقد النقد " أو " قراءة القراءة " من المفاهيم الجديدة التي تعني إنطاق ما أنطقته القراءة الأولى التي مورست على النص الأدبي ، أو على خطاب ما ، فمن منظور علي حرب "نقد النقد " يعني تسلّط قراءة سابقة دون أن يزعم للقراءة اللاحقة أن تكون أمثل من السابقة وأرقى . وهكذا يكون مفهوم " قراءة القراءة " ، أولا وأخيرا ، ليس إلا نقدا ، أو ضربا من النقد ، يبتديء من التنكّر لاسمه .

ويعدّ علي حرب الإبداع في ذاته قراءة ضمنية للقريحة ، وترجمانا للمخيلة ، لأنه " لا تخلو قراءة من تشبيه ، أكانت شرحا ، أم تفسيرا ، أم تأويلا ، وسواء اختص الأمر بقراءة العالم ، أم بقراءة النصوص ، أي قراءة القراءة " [7] ، وإذا كان الأمر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كذلك ، فهل ينصرف الشأن إلى قراءة لقراءة أم إلى قراءة قراءة القـراءة ؟ بـل إن علي حرب يعتقد أن كلا من الأمرين وارد دون أن يكون ممتنعا أو مستنكرا .

وبالإضافة إلى ذلك ، يرى علي حرب أن " قـراءة القـراءة " لا يجـب أن تتمخّض ، فقط ، للنص الأدبي الخالص الأدبية ، بل لكل النصوص الدينية والفلسفية والسياسية ، ويؤكد على أن القراءة الثانية هنا لاينبغي أن تكون ، بالضرورة ، مجرد وصف للموضوع (النص) من الخارج ، وإنما تغتدي مندمجة معـه ، وذات وضـع كامل فيه ؛ إذ هي نفسها تستحيل إلى إبداع يكتب حول إبداع آخر فيتكامل معه [8] .

ويفترض علي حرب في قراءة القراءة أن تؤصل مرجعية القراءة الأولـى ، وتكشف عن خلفياتها المعرفية ، وتبرز جمالياتها الكامنة بـين السـمات اللفظيـة ، والدلالات الظاهرة والخفية ، وتكشف عما لم يكشف عنه الناقد الأول نفسـه ، مـع التجانف عن إصدار الأحكام الاستعلائية . وفحوى القول " إن النص يشكل كونا مـن العلامات والإشارات يقبل دوما التفسير والتأويل ، ويستدعي أبدا قراءة ما لم يقرأ فيه من قبل "[9] .

وفي العصر الحديث ، توجد كثيرا من الكتابات التي تدخل فـي بـاب نقـد الكتابات التفسيرية السابقة مثل الحديث عن مناهج أشهر المفسرين في الإسلام ، ومن ذلك : منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ، لمصطفى الصاوي .

ولعل من أشهر ما يندرج ضمن هذا الإطار المفاهيمي من الكتابـات النقديـة العربية في القرن العشرين ، ما كتب عن كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين ، وكـذلك كل ما كتب عن كتاب " الفن القصصي في القرآن الكريم " لمحمد أحمد خلف الله .

ويلاحظ علي حرب أن مفهوم " نقد النقد " لا يكاد يخرج في الدرس النقـدي العربي المعاصر عن أحد أمرين : إما أن يصدر عن رضا وتعاطف ، وإما أن يصدر عن سخط وقلى . وفي بعض الأحيان تكون غاية " نقد النقد " هي التعريف بالمدارس النقدية المعاصرة ، وعرض أصولها وأسس فلسفاتها وخلفياتها أكثر من نقدها . وهذا مفاده أن النقود التي كتبت عن التراث ، أو عن الممارسات النقدية المعاصـرة ، لـم تجتهد في تصنيفها بالتحليل والتركيب والخروج منها بنتيجة مثمرة .

و عندما يتحدث علي حرب عن مفهوم القراءة، يرى أن قراءة القراءة فـي حقيقة أمرها، «نشاط فكري /لغوي مولد للتباين، منـتج للاخـتلاف.فهـي تتبـاين، بطبيعتها، عما تريد بيانه، و تختلف، بذاتها، عما تريد قراءته ،و شرطها، بل وعلة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجودها و تحققها أن تكون كذلك ، أي مختلفة عما تقرأ فيه ،و لكن فاعلة في الوقت نفسه ،و منتجة باختلافها ،و لاختلافها بالذات .و القراءة التي تزعم أنها ترمي إلى قراءة نفس ما قرأه مؤلف النص ، بحرفيته، لا مبرر لها أصلا.إذ الأصل يكون عندئذ، أولى منها؛ بل هو يغني عنها.هذا، إذا لم نقل بأن مثل ذلك الزعم هو غش و خداع.ذلك أن القراءة الحرفية مطلب يتعذر تحقيقه، و مطلوب يستحيل بلوغه، إذ الوقوف عند المعنى الحرفي للنص، معناه تكراره. و النص لا يتكرر، و إلا بطل كونه مقروءا»[10].

و يواصل علي حرب توضيحه لمفهوم قراءة القراءة، مؤكدا على أن عدم التطابق بين القراءة و النص المقروء، لا يعني بأي حال من الأحوال، أن القارىء لنص ما « يخطىء، بالضرورة، في شرحه، أو يسيء تفسيره، أو يغلو في تأويله، أو يغش في نقده و تقويمه.فليس هذا القصد البتة. ذلك أن إشكالية القراءة ، بحسب ما نقرأ القراءة هنا، لا تكمن في قصور القاريء المعرفي أو المنهجي، و لا في انحرافه الخلقي أو انحيازه المذهبي.إنها لا تتمثل في عدم جدارة القارىء على القراءة، و لا في عدم استقامته في التعاطي مع مقروئه، و إنما قوام الإشكالية، كما نراها، أنه لا تطابق ممكنا، في الأصل، بين القارىء و المقروء، إذ النص يحتمل بذاته أكثر من قراءة، وأنه لا قراءة منزهة، مجردة، إذ كل قراءة، في نص ما، هي حرف لألفاظه، و إزاحة لمعانية.»[11]

و يشير علي حرب في أكثر من موضع في مقاله، إلى أن قراءة القراءة ليست مجرد صدى للنص، بل هي احتمال من بين احتمالاته الكثيرة، و المختلفة. كما ينفي أن يكون القارىء في قراءته كالمرآة، لا دور له، إلا أن يعكس الصور و المفاهيم و المعاني، التي رمى صاحب النص إلى قولها، و التعبير عنها بحرفيتها و تمامها. "فالأحرى القول إن النص مرآة يتمرأى فيه قارئه، على صورة من الصور، و يتعرف، من خلاله، على نفسه، بمعنى من المعاني. و النص يقوى بطبيعته، على ذلك. إذ النص الجدير بالقراءة يشكل، في حقيقته وبنيته، حقلا منهجيا يتيح للقارئ الجدير بالقراءة، أن يمتحن طريقته في المعالجة، أو حيزا نظريا يمكّنه من البرهنة على قضية من القضايا؛ أو فضاء دلاليا يسمح له باجتراح معنى، أو انبجاس فكرة. و فحوى القول إن النص يشكل كونا من العلامات و الإشارات يقبل دوما التفسير و التأويل، و يستدعي أبدا قراءة ما لم يقرأ فيه من قبل»[12].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و الذي يتابع علي حرب، يجده يقدم جملة من الأسباب و الحجج على أن قراءة النص الواحد، تختلف مع كل قراءة، و بين قارىء و آخر؛ بل تختلف عند القارئ نفسه، و ذلك تبعا لأحواله النفسية، و أطواره الثقافية. و من هنا ينفي أن تختلف قراءة عن قراءة، لأن ثمة قراءة مطابقة أو ملائمة، و أخرى غير مطابقة أو ملائمة، بل يحاول أن يبين أنه لا يمكن لأي قراءة إلا أن تختلف بطبيعتها، عما تقرأه. ففي رأيه، أن اختلاف القراءة عما تقرأه، هي «خاصية أمهات النصوص، كالكتب المقدسة، و الأعمال الفلسفية، والآثار الشعرية، فإن قراءة النص الواحد منها تختلف باختلاف العصور، والعوالم الثقافية، بل تتعارض بتعارض الإيديولوجيات و الاستراتيجيات.و المثال على ذلك يقدمه لنا النص القرآني ، و هو من أكثر النصوص حثا على القراءة و استدعاء لها. فإنه مما لا جدال فيه أن قراءة القرآن قد اختلفت و تعددت بحسب المدارس الكلامية و المذاهب الفقهية، و بحسب الفروع العملية و الاختصاصات الفكرية، بل بحسب أشخاص العلماء أنفسهم، و لو كانوا على مذهب واحد، أو ينتمون إلى المدرسة الفكرية نفسها. من هنا تولد عن قراءته أكثر من نسق فقهي، و أكثر من مقالة كلامية؛ و نشأ حوله أكثر من تفسير و تأويل، ففي مجال الفقه، هناك الرأي و الاجتهاد ،و هناك النص و السمع ،فضلا عن الطرق الأخرى كالإجماع ،و الاستحسان ،و الاستصحاب . و في علم الكلام، من المعلوم أن لكل فرقة تأوّلها الخاص للمسائل العقائدية و الأصول الدينية، كالله و صفاته و أفعاله.فهناك المجسّمة و المشبّهة، و هناك المنزّهة و المعطّلة، و بينهما تقف الصفاتية، و هم الذين اختاروا موقفا وسطا؛ لذلك، فقد اختلفت قراءات القرآن باختلاف المجالات الثقافية و الميادين العملية. فالبلاغي يجد فيه ذروة البيان و منتهى الإعجاز،و الفقيه يستنبط منه مجموعة أحكام شرعية ؛ و الكلامي يؤسس عليه منظومة عقائدية ؛ و السياسي يستخلص منه نظام حكم و مشروع دولة ؛و الصوفي يكشف فيه مثالا زهديا و بعدا عرفانيا ؛و أخيرا يمكن للفيلسوف أن يقرأه قراءة فلسفية ،فيجد فيه حثا على النظر و التفكير [13]».

و يجدر التذكير هنا، أن ما ينسحب، في الخصوص، على النص القرآني، ينسحب أيضا على النصوص الفلسفية ذاتها، و خير شاهد على ذلك اختلاف الشروحات، و صراع التأويلات من حول الفلسفة اليونانية، إذ كانت الشروح تختلف باختلاف الشرّاح، أو باختلاف العصور و الثقافات، أو بحسب المعتقدات و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الانتماءات المذهبية و الرؤى.فلو أخذنا أرسطو مثلا أو أفلاطون، لوجدنا أن فلسفتهما قد شرحت في العصر الهلليني على غير ما شرحت في العصور اللاحقة التي شهدت تطورا في الفكر الفلسفي. ففي عصر من العصور، قرأت نصوص أفلاطون و أرسطو قراءة تختلف باختلاف الفضاءات الثقافية و الأنظمة المعرفية، وظفت بحسب الانتماءات العقائدية و الاستراتيجيات الفكرية.

و انطلاقا من هذه الحقيقة التاريخية، يرى علي حرب أن لكل فيلسوف«قراءته الخاصة، أو تأوّله الخاص للفلسفات التي سبقته، و الشاهد على ذلك قراءة هيدغر للنصوص اليونانية، فإن صاحب " الوجود والزمان" قد تأوّل الفلسفة اليونانية تأوّلا جديدا استثمر فيه حدسه الأصيل،و طبّق منهجه في البحث، و بذلك بدّل النظر بالكلية إلى الفكر اليوناني ،و إلى البداية اليونانية على وجه التحديد ،بل إنه بدّل نظرتنا إلى كل بداية . و ما ينطبق على الفلسفة ينطبق بالطبع على الشعر، فإذا كان النص الفلسفي، الذي هو نص نظري برهاني، يقبل أكثر من قراءة، فمن باب أولى أن ينفتح النص الشعري على ما يختلف و يتباين من القراءات، إذ كلام الشعر هو من أكثر الكلام احتمالا لفنون التأويل، تماما كالقول القرآني، لأنه من أكثر الكلام استعمالا للمجاز...و هكذا، فالنصوص / المرجع تشكل، دوما عند قراءتها، مجالا لانتظام كلام آخر، هو كلام القارىء. و هذا الكلام يختلف من قارىء إلى آخر، في قراءة النص نفسه، إذ لكل قارىء استراتيجيته الخاصة في القراءة، أي في تفسير الكلام، و تأوّل المعنى، و في استثمار الأفكار و تطبيقها[14]».

و لتوضيح هذه المسالة أكثر، لابد من الإشارة، ههنا، إلى أننا لا نعني إطلاقا بمفهوم اختلاف القراءة، أن القارىء يقرأ في النص ما يريد أن يقرأه، أو ما يحلو له أن يقرأه، و إلا استحال «الأمر عبثا و لغوا؛ فليس القصد أن القراءة هي إمكان قول كل شيء في أي شيء.و إنما القصد أن القارىء، إذ يقرأ النص، إنما يستنطقه و يحاوره. و هو، إذ يفعل ذلك، إنما يستنطق ذاته في الوقت عينه.إنه يستكشف النص بقدر ما يستكشف ذاته، و يحقق إمكانا يتفتق عنه كلام المؤلف، بقدر ما يسبر إمكاناته كقارىء. و لهذا، فإن كان القارىء يستنطق حقيقة النص ويسائله عن دلالاته، فإن النص، بدوره، يستنطق حقيقة القاريء و يسائله عن هو يته.و لنقل بتعابير أخرى ثمة تعارف بين النص و القارىء، بكل ما يعنيه التعارف بين شخصين أو ذاتين؛ نعني تعارفا يتولد عنه تعرف القارئ إلى ذاته من جديد، و معرفته بالنص

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على نحو لم يكن معروفا من قبل. و هكذا، فإذا كان القارئ يتكيف مع النص، و يلج إلى عالمه، أو يتوحد به، فإن النص يحث القارئ على النظر و التفكر، و يدعوه إلى استنفار طاقاته و امتحان قدراته و جلاء موهبته.و ربما استهوى النص القارئ، و شكّل، بالنسبة إليه، موضوع اشتهاء كما يذهب إلى ذلك رولان بارت. فالنص مثل الجسد، قد يراود القارئ عن نفسه فيغريه، و يفتح شهيته للكلام، و يحرك رغبته في المعرفة، فيلتذ القاريء به، و يؤثره و يشتاق إليه. والحق، أنه إذا كان النص هو بمثابة مرآة يرى فيه القارئ نفسه، بصورة من الصور أو بمعنى من المعاني، فإن المرآة، إذ تسهم في عملية التماهي مع الذات و اكتساب الهوية، تولد ضربا من الشعور النرجسي، و تشكل بذلك مصدر غبطة و نشوة.ذلك بأن كل تماه يخالطه عشق للذات و التذاذ بها[15]».

و مما سبق يظهر أن النص الجدير بالقراءة، لا يحمل في ذاته دلالة جاهزة و نهائية، بل هو فضاء دلالي، و إمكان تأويلي.و بالتالي، فهو لا ينفصل عن قارئه و لا يتحقق من دون مساهمة القارئ.و لهذا،فإن كل قراءة تحقق إمكانا دلاليا لم يتحقق من قبل .و كل قراءة «هي اكتشاف جديد، لأن كل قراءة تكتشف بعدا مجهولا من أبعاد النص، أو تكشف النقاب عن طبقة من طبقاته الدلالية. وبذا تسهم القراءة في تجديد النص، و تعمل على تحويله. و النص لا يتجدد و لا يتحول، إلا لأنه يملك، بذاته، إمكان التجدد و التحول . هناك تواصل و تحاور بين النص و قارئه .و العلاقة بينهما هي علاقة بنيوية تجعل أحدهما يتوقف على الآخر.فالقارىء يرتهن للنص، و لكن النص يرتهن، بدوره، بقراءة كل قارئ. من هنا، انفتاح النص على الاختلاف و التعدد، و هذه النظرة المتفتحة إلى النص تستمد مشروعيتها من اختلاف القراءات للنص الواحد.فلو لم يكن النص كذلك، أي إمكانا ينفتح على أكثر من قراءة، لما تغيرت قراءته و لما تنوعت دلالته عند كل قارئ. فلا حياد إذًا في القراءة. بل كل قراءة لنص من النصوص هي قراءة فيه، أي قراءة فعالة منتجة تعيد تشكيل النص، و إنتاج المعنى. و لهذا نقول بأن القراءة الحرفية هي خدعة، اللهم إلا إذا كانت تعني التكرار الأجوف أو الصمت، أي اللاقراءة [16]».

و بعد مناقشة لمفهوم القراءة الحرفية التي يعدّها قراءة أهل الظاهر الذين يتمسّكون بحرفية النص،و يمسكون عن التفسير و التأويل، لأنهم يرون أن لا وجه في النص ،إلا الوجه الظاهر ،و هذا مفاده أن اللفظ لا يحتمل إلا معنى واحدا .و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انطلاقا من هذا الرأي يغدو المعنى ظاهرا بذاته، بينا بنفس العبارة التي كتب أو قرئ بها ، و من ثم لا يحتاج إلى بيان أو شرح. فعلى هذا الرأي يصبح النص تنصيصا على المقصود، و المعنى صريحا، و القول محكما، و المراد جليا واضحا.

قلت و بعد مناقشة القراءة الحرفية، و توضيحها، يرى علي حرب أن القراءة الظاهرية «تثير إشكالا مفاده أن أهل الظاهر يرون رأيهم و يجتهدون في تقصي المعنى، حيث يزعمون أن المعنى منصوص عليه، لا يحتاج إلى استخراج أو إعمال نظر. ذلك أن أهل الظاهر مكرهون على التعبير عن المعنى المراد، أي المنصوص عليه، بعباراتهم هم، في حين أنهم يدّعون أن المعنى لا يحتاج إلى صيغة غير الصيغة التي عبّر بها عنه.و التعبير عن المعنى المراد بعبارة غير عبارته الأولى، إنما تعد عن موضوع الألفاظ، و حرف للكلام عن مواضعه، ذلك أيا كان التقارب بين العبارتين، و أيا كان غرض القراءة و مرماها. لأن الألفاظ، و بحسب ما يقرره أهل الظاهر أنفسهم، إنما ركبت و رتبت للدلالة على معان مخصوصة من دون غيرها، فإذا تبدّلت تلك الألفاظ أو تغير ترتيبها، أدى ذلك، بالضرورة، إلى تغير المعنى، فالأصل في اللغة عدم الاشتراك، أي عدم الترادف. و كل ترادف، أي كل إحلال للفظ أو تعبير محل آخر، إنما هو استخدام للكلام لغير ما وضع له في الأصل. و ذلك هو المجاز. إنه خروج بالدلالة و صرف للكلام إلى معنى يحتمله. فهو إذن تغير في الدلالة و اختلاف في المعنى. هكذا، فإن أهل الظاهر إذ يعمدون، بل يضطرون إلى إعادة صياغة المعنى المراد، إنما يخرجون على ظاهر النص فيتأولون المعنى حيث ينفون ذلك. و هذا مأزق القراءة الظاهرية. فهي إما أن تعيد ترتيب الكلام و إنتاج المعنى، و إما أن تفضي إلى السكوت، أو إلى الاكتفاء بالاستماع إلى النص و الإنصات إلى تلاوته. و الحق أن القراءة الحرفية الظاهرية ليست ممكنة، ما دام أي شرح يقال حول النص يحمل إضافة أو حذف، و يحتمل تبديلا أو تغييرا. و قد أدرك هذه الحقيقة بعض رواة الحديث بحسب ما يروي ذلك عنهم ابن حزم الأندلسي، فكانوا إذا ما حدّثوا بالحديث، لا يعقّبون عليه بأي شرح أو تعليق، إذ برأيهم، كل كلام يقال في النص لابد أن يتغير في دلالته حتى و لو كان ضرب مثال أو إيراد شاهد. و بالفعل، فالذي يحاول، مثلا، تفسير قول الله أو شرح حديث نبوي، إنما يقول في الحقيقة قوله ويسوق كلامه، إذ للعبارات الشارحة منطوق مغاير لمنطوق النص المراد شرحه. فكل كلام يعود في النهاية إلى مؤلفه ، و كل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قول يحمل هوية قائله ، و لو كان كلاما شارحا مفسرا ، ولو كان قولا على القول. فالقول حول القول هو قول فيه على نحو ما ، أي قول الاختلاف و المغايرة [17]».

و من منظور علي حرب، أن قراءة القراءة ، سواء أكانت شرحا، أم تفسيرا، أم تأويلا، و سواء اختص الأمر بقراءة العالم، أم بقراءة النصوص، أي قراءة القراءة، فإنها لا تخلو من تشبيه، و ذلك بأن الإنسان، إذ « يقرأ معاني الأشياء، أو يقرأ فيها، فإنه لا ينفك يعير الأشياء أسماءه ، و يخلع عليها أوصافه. إنه يقرأ، عبر قراءته للشيء، في جسده، فيكني عن رغباته، و ينبئ بأحواله، و يرمز إلى أطواره، و يعقل نفسه و يستعرض قوته، فلا فكاك، إذن، من تشبيه. و التشبيه أثر من آثار الذات. إنه قراءة فيما هو الإنسان، و فيما يعرض له من صور و رسوم. وكما أن من يقرأ في كتاب العالم، يقرأ نوعا ما معانيه و صوره، كذلك قارئ النص، فإنه يقرأ، هو الآخر، نوعا ما، معانيه و صوره، عندما يقرأ في نص من النصوص، فيجرب فيه لغته، و يشغل مخياله ، ويفهم فهمه. كل قارئ يعرض ذاته، و يتحدث عما يعرض له من معنى ، أو صورة أو رسم، حين يتعرّض للنص بالشرح و التفسير ، أو بالنقد و التحليل . ولذا، فإن القارئ إذ يقرأ، إنما يعيد، إنتاج المقروء بمعنى من المعاني، و على صورة من الصور[18]».

أما قراءة القراءة لدى قدماء العرب فقد جاءت ردا لقراءة سابقة، أو نقضا لتحليل لم يلق القبول، ويظهر ذلك في التعليقات التي كانت تكتب من حول النص المقروء، ومرد ذلك إلى الاختلاف في الذوق، و التنوع في الثقافة و التفاوت في العلم، و هذا التنوع الثقافي، و الاختلاف الذوقي، هما اللذان كانا يغريان المتأخر بإعادة النظر في قراءة المتقدم.

و لعل ممارسة قراءة القراءة هي أكثر اعتياصا، و أشد تعقيدا، لذا يتطلّب فيها «أن يكون ممارسها ذا معرفة أوسع و أعمق و أغنى من القاريء الذي يقرؤه، إما لا، فليكن مستويا معه في الثقافة و المعرفة و التجربة...نقول ذلك حتى نجتعل الحد الأدنى من الشروط لمن يريد أن يقرأ قراءة ما. ذلك بأنه يفترض في قارئ القارئ ،أن يكشف عما لم يكشف عنه القارئ –المحلل– نفسه، فيغوص إلى أواخيّ هذه القراءة، و يؤصّل مرجعياتها ،و يكشف عن خلفياتها المعرفية ،كما يبرز جمالياتها الكامنة بين السمات اللفظية الموقرة بالمعاني البعيدة و الغريبة ،و الدلالات الظاهرة و الخفية [19]».

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و خلاصة القول إنه يظهر مما سبق أن قراءة القراءة قد تكون شرحا أو تحليلا، و قد تكون تفسيرا أو تأويلا، و قد تكون نقدا أو نقد نقد، و قد تكون تعليقا أو تشريحا.و هذا مفاده أن القراءة نشاط ذهني متنوع و متعدد المظاهر، أو إبداع متعدد الأشكال.

و كل قراءة من قراءات النص تعد مقدمة للقراءة التي تليها. و إذا كان الأمر كذلك، فإن القراءة لا تخرج من مأزقها إلا إذا توقّف النظر إلى النص بوصفه أحادي المعنى، وإلى القراءة بوصفها تتطابق مع النص. و بدلا من ذلك، ينبغي على الباحثين أن ينظروا إلى القراءة بوصفها اختلافا عن النص لا تماهيا معه، بل يجب عليهم أن ينظروا إلى النص على أنه حيز كلامي أو مقالي يتعدد معناه، و تتفاضل دلالته، و تتنوع مقاماته، و تختلف سياقاته، و تتعارض بياناته، و تترتب مستوياته، و تتراكم ترسباته ..بل النص حيز ينطوي على سياقات و فراغات. و تخترقه شقوق و فجوات. فنظرتنا إلى النص على أنه فضاء متقوب ،و مساحات مفتوحة ،هي التي تجعلنا نتقبل قراءات عديدة و مختلفة لأثر واحد.

و هذا يعني أن حل إشكالية قراءة النصوص الدينية أو الأدبية، أو الفلسفية موكول إلى إلغاء كل اتفاق نسبي حول الدلالات النصية لدى مجموعة كبيرة من القراء، أو في فترة من فترات التاريخ عبر العصور المختلفة، ذلك أن التطرف في جعل القراءة تأويلا فرديا لا غير، يغيّب تماما كل حضور لسلطة النص باعتباره هو أيضا يمارس دوره و توجيهه أحيانا نحو الحصر النسبي لاحتمالات الدلالة. كما ينبغي الإشارة إلى دور السياقات النصية الداخلية المسؤولة في كثير من الأحيان عن التقارب بين القراءات المتعددة و المختلفة فضلا عن السياقات الاجتماعية و الحضارية التي تسمح دائما بتأويلات محددة تشترك فيها و تلتقي عندها شرائح كاملة من القراء في عصر من العصور دون أن يغيب الاختلاف بشكل تام، كما يقول حميد لحمداني في كتابه القراءة و توليد الدلالة.

و نعتقد، مع علي حرب[20]، أن قراءة النصوص أحادية، تبحث عن معنى وحيد هو المعنى الأصلي الذي يحتمله الكلام، و الذي ينبغي العثور عليه و إتمامه معه و تجسيده، قد وجدت ترجمتها في الحروب الدينية و الفتن المذهبية و التصفيات العقائدية، و ذلك حيث يعتقد كل مذهب بأنه الأكثر تطابقا مع حرفية النص، و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأقرب إلى روحيته و اكتناه معناه الأصلي، و ينظر بالتالي إلى الاختلاف بوصفه بدعة و ضلالة، أو هرطقة وتحريفا.

الهوامش

[1] أحمد بوحسن : المصطلح ونقد النقد العربي الحديث . مجلة الفكر العربي المعاصر . ك2 .شباط . 1989 . ص 83 .

[2] المرجع نفسه . ص 83 .

[3] المرجع نفسه . ص 84

[4] المرجع نفسه . ص 84 .

[5] عبد الملك مرتاض : نظرية القراءة . دار الغرب للنشر والتوزيع . وهران . 2003 . ص 31 ــ 32 .

[6] ينظر : علي حرب : قراءة ما لم يقرأ ، نقد القراءة . الفكر العربي المعاصر . ك2 شباط . 1989 . ص 46 .

[7] المرجع نفسه . ص41 .

[8] ينظر المرجع نفسه . ص 44 .

[9] المرجع نفسه . ص 41 .

[10] علي حرب :قراءة ما لم يقرأ نقد القراءة . مجلة الفكر العربي المعاصر. 1989 . ص 41

[11] المرجع نفسه ص 41

[12] المرجع نفسه ص 41

[13] المرجع نفسه ،ص 41 -42

[14] المرجع نفسه ،ص-42

[15] المرجع نفسه ،ص 41 -42

[16] المرجع نفسه ،ص 43

[17] المرجع نفسه ،ص 43

[18] المرجع نفسه ،ص 41

[19] المرجع نفسه ،ص 40

[20] ينظر علي حرب قراءة ما لم يقرأ ،نقد القراءة .الفكر العربي المعاصر .ص 51.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com